إهـــداء

إلى صديقى الطبيب/ محمد عبد العليم العسكرى

الشهيد الذى رحل عن دنيانا غرقاً

فى جوف الليل ...

بينما كان فى طريقه لإنقاذ نفس بشرية

وداعاً للإنسان

..... والنبوغ

..... والتفوق

obeikan.com

obeikan.com

مُقَدِّمَة

كنت فى المرحلة الإعدادية عندما سمعت لأول مرة عن جامعة السوروبون. والسبب طه حسين عميد الأدب العربى الذى كان مقرراً علينا الجزء الأول من كتابه الأيام.. وأشهد أننى منذ هذا التاريخ ازداد اهتمامى بهذه الجامعة التى علمت ضمن ما علمت لاحقاً أنها من أعرق جامعات العالم.. وعلمت أيضاً أن لغة فولتير التى تنطق بها هذه الجامعة والدارسون فيها أيضاً من أحب لغات الأرض للدكتور طه حسين الذى كان يتغنى بها كما يتغنى باللغة العربية التى كان الكثيرون يطربون عندما يستمعون إليه وهو يتكلم اللغتين.

وأشهد أن اللغة الفرنسية كانت سيئة السمعة فيذهب إليها الطالب رغم أنفه لأنه حصل على مجموع صغير فى الشهادة الابتدائية.. أما اللغة الإنجليزية فكانت تفسح المجال للمتفوقين .. وكذلك عندما سمعت عن جامعة السوروبون ولغتها الفرنسية.. وعرفت أن كبار المتعلمين فى مصر والأسر البرجوازية ومعظم قادة الرأى والفكر والوطنية كانوا يتعلمونها.. بل إن مصطفى كامل – زعيم الأمة – كان من دارسى الحقوق باللغة الفرنسية فى مدرسة الحقوق الخديوية!

أقول كل ذلك أصابنى بالدهشة لأن هذه اللغة أجدر بها أن تكون – إذا كان الحال كذلك – اللغة الأولى وليست اللغة الثانية.

أقول ذلك لأننى عندما تأملت جواز السفر المصرى ورأيت أن كل كلماته باللغة الفرنسية وأنه يعمل وفق اتفاقية مصرية – فرنسية أدركت أن اللغة الفرنسية

ليست «دون» كما نفهم ذلك فى مصر.

وعندما قدر لى أن أعيش فى فرنسا وأن أتكلم اللغة الفرنسية كأهلها.. وحصلت على درجة الدكتوراه باللغة الفرنسية ومن جامعة السوربون الأولى... وأنجبت أولادى فى باريس وكنت أتحدث معهم لغة فولتير.. بل وأصررت أن يذهبا إلى مدارس الليسيه الفرنسية فى القاهرة.. وأن يذهب ابنى الأكبر إلى الجامعة الفرنسية فى مصر.. كان ذلك اعترافاً ضمنياً بأولوية هذه اللغة على غيرها من اللغات!

أياً كان الأمر – ذهبت إلى جامعة السوربون بعد أن أتقنت اللغة الفرنسية فى أحد المعاهد الدولية – وهو معهد الأليانس فرانسيز القريب من حى مونبارناس ولم أجد مشقة فى التسجيل، والتقيت بأستاذى الذى كان مستشرقاً ويدعى بيير تييه.. ولا أنكر أنى كنت سعيداً بالجامعة وبمكتبتها وبقاعاتها الكبيرة.. وكنت فى البداية أحضر أية محاضرة على طريقة طه حسين.. المهم أن أفهم ما يقال.. وكنت قرأت فى الجزء الثالث من كتاب الأيام عن شارع المدارس، والكوليدج دى فرانس وتمثال مونتاني.. وأعترف صادقاً أننى كنت إذا سرت فى هذا الشارع أمشى الهوينى فى غير سرعة وبتأن شديد لأننى كنت أظن أننى أمشى على جسد طه حسين نفسه!

كانت أولى القضايا أن نعرف «أصل وفصل» هذه الجامعة التى طبقت شهرتها الآفاق. وكان عميد الأدب العربى (طه حسين) أكثر من روج لها فى الشرق العربى من خلال الجزء الثالث فى كتابه «الأيام» الذى رصد – بدقة – علاقته بالجامعة فكراً ومنهجاً وطلاباً إلى حد أن كل من يقرأ هذا الجزء تحديداً يشتهى أن يدرس فى هذه الجامعة.. ناهيك عن أن جانباً مهماً من فكره ورؤاه استقاه (حلالاً زلالاً) من قاعات ومكتبات السوربون بل إن الحرائق الفكرية التى أشعلها فى عصره سواء الخاصة بالاستشراق، أو باللغة اللاتينية وكتابة السيّر وقراءة التاريخ قد استلهمها من رجالات هذه الجامعة وتلاميذها. وأذكر أننا كنا نجلس وكأن على رؤوسنا

الطير أمام حديث ممتع استمعنا إليه من أحد رفاق «الشلة» عن القس روبرت دى سوربون مؤسس الجامعة الذى لم يكن يعرف – بالقطع – أن ملجأ الفقراء الذى كان يبنيه فى شتاء عام ١٢٥٧م سيكون حجر الأساس لقبلة طلاب المعارف وأشهر جامعات العالم قاطبة، وأغلب الظن أن الرجل لم يكن يطمح لشيء من هذا.. فحسبه أنه كان من ذوى القلوب الرحيمة فلم يتردد فى أن يستغل صلته القريبة بـ (الملك لويس) ليأخذ موافقته على إنشاء بيت متواضع لاستقبال ١٦ طالباً فقيراً؛ كى يتمكنوا من دراسة علم اللاهوت والتأمل فى نصوصه فى مأمن من صقيع البرد وأهواء الطبيعة.

واليوم عندما تقف مبانى السوربون شامخة وكأنها تطاول الزمان والمكان معاً لتستشرف عنان السماء بأمجادها العلمية التى ما فتئت تؤتى أكلها على مدى ٨٠٠ عام لابد أن تقفز إلى الأذهان صورة هذا الرجل الودود الذى حزّ فى نفسه أن يجد أهل الورع من طلاب اللاهوت يلبسون ثياباً رثَّة، بعضها ممزق لا يقى برد الشتاء يبحثون فى الليل عن مكان يأوون إليه فلا يجدون!

تقول الرواية التاريخية إنه بكى عندما وجد الحجرات الصغيرة التى يسكنها الطلاب بجوار إسطبلات الخيول وتحت أدراج البيوت الفخمة وخصوصاً عندما كان يسمعهم فى النهار يتسولون وهم يرددون أغنية حزينة يقول مطلعها:

أعطونا خبزاً..

لكى نعيش وندرس اللاهوت!

لقد كانت هذه الصورة البائسة التى مازالت تحتفظ لنا بها سجلات الجامعة حتى اليوم كفيلة بأن تجعل القس روبرت دى سوربون يكرس بقية حياته لوضع المبادئ الأساسية التى تحكم حياة الطلاب سواء فى حجرات الدرس والتأمل أو

فى أماكن السكنى(*).

(*) بعد وفاة دى سوربون فى عام ١٢٧٤م جاء رمان على الجامعة المسكينة لم تك شيئاً مذكوراً: إذ غمر فجواتها الغبار ولفها النسيان حتى كادت تكون (خرابة) إلى أن امتدت إليها يد السياسى اللامع (رشيليو) فعادت إليها الحياة من جديد ولكن فى صورة أكثر نشاطاً وحيوية فتبنى مشروعاً لإعادة الترميم عندما أعطى تعليمات صارمة للمهندس المعمارى جاك لاميرسيه لكى يضع تصميماً يحترم الشكل الأساسي لجميع المبانى باستثناء الكنيسة التى ترك له حرية التجديد فى شكلها وبنائها.

وفيما كانت تقوم عمليات الترميم والإنشاء على قدم وساق لفظ (ريشيليو) أنفاسه الأخيرة بعد أن كتب وصيته يقول: أرجو إتمام المبانى التى أمرت بتشييدها ومن مالى الخاص وخصوصاً كنيسة السوربون وزخرفة هذه الكنيسة وقبرى الذى أود أن يكون داخل الكنيسة

لكن هل انصاعت وريثة ريشيليو (دوقة دافينيون) إلى أوامر وصيته؟ كلا! فلقد سدت عليها الثروة الموروثة كل منافذ التفكير ورفضت أن تعطى فرنكاً واحداً لإكمال المشروع الذى بات مهدداً بالتوقف.

ويذكر تاريخ الجامعة أن سلسلة من الدعاوى والمحاكمات قد بدأت بين الوريثة (الطامعة) وإدارة الجامعة (الطامحة) دون أن تصل إلى شيء فتدخل القدر ليختطف دوقة دافينيون لتؤول التركة بعد ذلك إلى ابنتها التى قبلت مكرهة تنفيذ الوصية. ثم امتدت منشآت الجامعة وانتشرت مبانيها فى المناطق المحيطة وأقبل الطلاب من كل فج عميق للدراسة فى قاعاتها الكبيرة فقويت شوكتها ثم حدث أن تنكرت لبعض أفكارها؛ فإذا بها تبطش بالمفكرين وتحرق كتبهم خصوصاً أن إدارتها كانت فى ذلك الحين خاضعة لرجال الدين!

فهذا (ديكارت) المسكين تتهمه الجامعة بالزندقة والإلحاد لا لشيء إلا لأنه أصر على أن يكتب مؤلفه الشهير «مقال فى المنهج» باللغة الفرنسية دون اللغة اللاتينية التى كانت لغة التعليم والكتابة فى ذلك الوقت.

أما ديدرو ومونتسكيو ودالمبير وبوتون فقد ذاقوا جميعاً الأمرين وتجرعوا غصص الهوان على أيدى مردة الجامعة من رجال الدين!

وأياً كان الأمر فالتاريخ وإن احتفظ لنا بهذه الصورة القاتمة من تاريخ السوربون إلا أنه ما زال يذكر بامتنان رواد الفكر الإنسانى الذين درسوا فيها قبيل انتصار الثورة الفرنسية وبعدها حتى قدر للجامعة أن تولد مرة أخرى بمجيء نابليون الذى أضاف إلى مبانيها وقاعاتها عدداً كبيراً من المنشآت الضخمة.

ثم ازداد شغفى بالجامعة وبالعرب الذين درسوا فيها.. مثلاً ازداد إعجابى بالدكتور المفكر عثمان أمين الذى كان أول من درس الإمام محمد عبده الذى رحل عن دنيانا عام ١٩٠٥.. وأعد عنه أطروحة دكتوراه.. ثم الدكتور محمد موسى.. والدكتور/ محمد مندور والدكتور زكى مبارك والدكتور محمد أحمد خلف الله بالإضافة للدكتور أحمد ضيف الذى كتب عنه طه حسين وكان يزامله فى الجامعة ثم الدكتور صبرى السوربونى الذى درس فى جامعة السوربون وتزوج من فرنسية أيضاً.. والدكتور لويس عوض الذى تزوج من فرنسا وإن لم يدرس فيها دراسات منتظمة.

أقول الحق لقد تبين لى أن كل الرعيل الأول درس فى فرنسا بل إن ٣٢٠ طالباً مصرياً كانوا يدرسون على أيدى الأستاذ لامبير فى كلية الحقوق بجامعة ليون من إجمالى ٤٠٠ طالب كانوا يدرسون فيها!!

والحق أن الثقافة الفرنسية فى جزء كبير منها قد شاعت بشيوع لغة فولتير منذ الطهطاوى الذى ذهب فى زمن محمد على إلى باريس ليؤم المبعوثين فى الصلاة.. إلا أنه تفرغ للبحث والترجمة واهتم بروح القوانين ومؤلفه مونتسكيو.. وكتب فى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز.. يومياته.. ثم عاد وأنشأ كلية الألسن فى جامعة عين شمس الحالية.

وإن كنت أنسى، فلن أنسى الدكتور محمد حسين هيكل الذى كتب قصة زينب من واقع الحنين الذى كان يشعر به تجاه مصر وفلاحيها ويروى أنه كان يعود من الجامعة ليغلق النوافذ ويستحضر قريته كفر غنام بالدقهلية ليكتب أحداث روايته ثم يبعث بها إلى مصر لتنتشر بإمضاء فلاح مصرى فى صحفها السيّارة.. وكان معروفاً عن الدكتور هيكل أنه كان يدرس القانون وأعد أطروحة عن الدين المصرى لكن الأدب كان سلوته الوحيدة، فى اجترار الذكريات..

وأشهد أننى عندما كنت أذهب إلى جامعة السوربون أتذكر الكلمة الشهيرة التى

قالها الدكتور زكى مبارك وهى أن أحجار جامعة السوربون سوف تبلى ويبقى كتاب النثر الفنى فى القرن الـ١٤ الهجرى، أما أستاذهم الإمام محمد عبده الذى ذهب إلى هناك وأصدر مع أستاذه الأفغانى ١٨ عدداً فقط من جريدتهما العروة الوثقى.. وفى أعدادها اعترف بأن الرحابة العلمية وحرية الفكر التى وجد فرنسا عليها هى التى دفعته مع أستاذه إلى إصدار هذه الجريدة.

أما تلميذه عبد الرحمن بدوى فقد ترك مصر فى أوائل الخمسينيات ثم استوطن فندق لوتيسيا بالحى اللاتينى وكتب ما يقرب من ثلاثمائة كتاب وتحقيقاً تراثياً فى باريس.. ولم يتزوج وكان مخلصاً للعلم والعلماء.. وأذكر أنى أول مرة التقيته فيها كان فى اليونسكو أثناء مشاركته فى ندوة حول كتاب دلالة الحائرين لمؤلفه ابن ميمون وهو الطبيب الخاص للقائد صلاح الدين الأيوبى.

أقول كلما ظننت أنى رصدت – وهو كثير – تاريخ كل من درس في جامعة السوربون اكتشفت أن هناك العشرات بل المئات الذين حملوا جامعة السوربون على أكتافهم ومنهم الدكتور محمد أركون الذى أسس قسم الدراسات الإسلامية الذي خلفه فيه الباحث والكاتب بول بالطا وهو – لمن لا يعرف – ابن خالة المفكر الراحل أنور عبد الملك.

... وإذا قمنا بتوسيع الدائرة وجدنا مئات من المفكرين العرب قد درسوا فى جامعة السوربون من لبنان التى تتحدث بعض الأسر فيها اللغة الفرنسية ويرتبط قادتها سياسياً بفرنسا إلى جانب المغرب العربى (تونس والجزائر والمغرب) التى ترتبط بفرنسا وتتحدث لغتها حتى فى المقاهى والحانات والدكاكين الصغيرة.

.. أقول إن السوربون ذهبت إلى دولة الإمارات العربية وأنشأت فيها فرعاً تابعاً لجامعتها فى باريس.

باختصار كانت جامعة السوربون قبلة للأساتذة والطلاب العرب الذين يأتونها من كل فج عميق..

ويُروى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية الشهير درس بها وكان يذهب كل صيف إلى هناك ويجلس فى مكتبتها إلى آخر العمر.. وكذلك كان يفعل الدكتور عبد الرحمن بدوى.. وتبقى الجامعة ليرتبط بها الجامعيون العرب.. حتى لتظن أن أقسام اللغة العربية بها والدراسات الإسلامية التى درس فيها غالى شكرى والشاعر أحمد عبد المعطى حجازى كثيرة إلى حد أنها باتت تتكلم اللغة العربية صباحاً ومساءً ومنها أننى ذهبت إلى جامعة السوربون فكانت أول محاضرة عن «كتاب النفس» لابن سيناء.. أما أركون فى السوربون الجديدة فكان يُدرّس ابن سبعين وهو فيلسوف إسلامى يعيش فى أسبانيا وتحديداً فى جنوب أوروبا.

باختصار لقد لعبت السوربون دوراً تنويرياً عبر أساتذتها العرب وطلابها الذين كانوا يرون أنها قبلتهم قديماً وحديثاً..

* * *

ذهبت لأول مرة إلى جامعة السوربون برفقة صديق عراقى كان يدرس فى قسم الفلسفة .. وفوجئت بأن الأستاذ المشرف يلتقى بحوالى عشرة طلاب من أصول عربية ويدرس معهم «كتاب النفس» لابن سيناء.. وكتاب تراثى محقق هو «أفلاطين عند العرب»من إنتاج د. عبد الرحمن بدوى.

.. وكنت متأثراً بالثورة الإيرانية كعادة شباب هذه المرحلة .. كان ذلك فى أوائل ثمانينيات القرن الماضي .. وأذكر أن الأستاذ الفرنسي تقدم منى فى أدب جم وسألنى ما إذا كنت أتيت للدراسة معه فقلت له على طريقة المصريين عندما يجدون أنفسهم فى مأزق حياتى.. نعم! وعندما بدأنا نتناقش قلت:

أريد أن أدرس فلسفة الدين..!

فصمت الرجل وطلب أن أكتب بعد أن قام بالتسجيل لى فى قسم الفلسفة

السياسية واقترح عليّ أن أدرس العلاقات السياسية الدولية فى زمن الإمام محمد عبده وقال لى بالحرف الواحد. لابد من استغلال دراستك السياسية فى هذا المجال!

.. وأذكر أنى عدت إلى مصر وذهبت إلى كليتى «كلية الاقتصاد والعلوم السياسية» والتقيت ببعض الأساتذة الذين نصحونى بقراءة رسالة دكتوراه بها فصل عن الإمام محمد عبده وآرائه السياسية لكننى للأسف لم أجد ما يرضيني. وتبين لى صعوبة عمل هذه الدراسة. وعندما عدت إلى باريس أظهرت الأستاذ على صعوبة البحث عن مصادر فى موضوع محمد عبده.. وكان المحك الحقيقى هو أن أكتب فى الموضوع الذى تحدثت مع الأستاذ فيه وهو فلسفة الدين..

لكن بعد عدة أشهر تبين للأستاذ أن الموضوع أكبر مما تصورت وفوجئت بالأستاذ يطلب تغييره.. وأحالنى إلى مساعده الأب اللبناني يواكيم مبارك. وأذكر أن الرجل من قبيل التبسيط لاحظ أن معظم مراجعى التى استعنت بها هى مؤلفات لعباس محمود العقاد.. فقال لي: خذ فلسفة الدين عند العقاد.. ما رأيك؟ لأن موضوع فلسفة الدين واسع ويحتاج إلى عشرين شخصاً يعملون دكتورهات فيه...

وبعد عناد منى رضخت.. وأذكر أن الأستاذ يواكيم مبارك قال لي: خذ دكتوراه يا ابنى.. ثم تفلسف كما يحلو لك بعد ذلك.. ثم لا تنسى أن الفكر الفرنسي لا يعرف عباس العقاد لأن ثقافته أنجلوسكونية وعلى العكس يعرف جيداً زميله طه حسين.. وعندما نقرأ لطه حسين نقول لأنفسنا: هذه بضاعتنا رُدت إلينا!

وأضاف: فى كل مرة نجد اسم طه حسين مقترناً بعباس العقاد لكننا نعرف جيداً الأول.. ولا نعرف الثانى.. حتى أن الأنسكلوبيديا الفرنسية تقوم بتعريف العقاد بأنه: روائى مصرى له قصة سارة.. وهذا غير صحيح.. فالعقاد كاتب ومفكر إسلامى ومصلح أدبى وشاعر.. إذن الفكر الفرنسي لا يعرف حقيقة هذا الرجل.!

ومن ثم فعمل أطروحة للدكتوراه حوله.. سوف يكون إضافة حقيقية للفكر

وتوضيح أمين لفكر الرجل..

.. وفى جامعة نانتير أى باريس العاشرة تقدمت بأوراقى لمعرفة أنه لم يسجل فى أوروبا شخص عن فكر العقاد.. واكتشفت بعد أسبوع أنه لم يسجل أحد سوى شخص فى أسبانيا عن العقاد اللهم بعضهم تحدث عن النبوة عند العقاد فى فصل من فصول رسالته المهم.. بدأت على بركة الله رسالتى.. وعشت مع العقاد حوالى خمس سنوات.. وما أجملها سنوات بحث ودراسة فى عاصمة النور (باريس).. وفى يوم المناقشة أذكر أنه كان يوم سبت.. حضر الملحق الثقافى المصرى فى باريس.. وكان ضمن لجنة المناقشة الراحل الأستاذ أرنالديز المستشرق الفرنسى المعروف باهتمامه بابن تيمية والدكتور المصرى النوبى أحمد جمال عثمان ثم أستاذى المشرف بيير تييه..

وأقام لى المستشار الثقافى أحمد البرعى حفل تكريم فى مقر المركز الثقافى فى سان ميشيل.. وكان يوماً مشهوداً شعرت أنى ولدت فيه (كباحث) من جديد..

والحق أننى كنت عندما أزور جامعة السوربون ومكتبتها العريقة أتذكر أنها صاحبة الفضل عليّ فى تحويل مجرى حياتى من مجرد كاتب إلى باحث أكاديمى.

.. كانت مفاجأة لى أن جامعة السوربون تتكلم بانعربى. فالطلبة العرب يملؤون التخصصات والأقسام.. والأساتذة الذين يتكلمون اللغة العربية يقفون فى كل المدرجات ويتولون مسؤولية البحث العلمى فى القاعات..

.. وفى هذه السطور.. تكلمت عن الجامعة والأساتذة وبعض الطلبة..

.. ثم توقفت مطولاً عند البروفيسور الجزائرى محمد أركون الذى تولى قسم الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون فتحدثت عنه.. كما تحدث هو عن نفسه.. وتحدث الآخرون عنه

لكن يبقى أن الجامعة أصرت أن تتحدث بالعربى..

د. سعيد اللاوندى

كلمة للدكتور: هاشم صالح

المترجم الأول للدكتور محمد أركون

هل تغيّر محمد أركون!

مثلما كانت الإمبراطورية العثمانية هي الرجل المريض في القرن التاسع عشر، فإن العالم العربي أصبح هو الرجل المريض بالنسبة للعالم كله بعد (١١) سبتمبر. وقد كثرت التشخيصات لهذا المرض العضال. فمن تقرير التنمية الإنسانية في العالم العربي والصادر عن الأمم المتحدة أخيراً، إلى تحليلات هذا الخبير، وذاك ما عدنا بقادرين على أن نعدّ المشاريع التي تدرس مشاكلنا وهمومنا. في مثل هذا الجو وصلني بالبريد كتاب محمد أركون الأخير عن «النزعة الإنسانية والإسلام.. معارك فكرية ومقترحات من أجل الخروج من الأزمة».

وقد انخرطت في قراءته من دون أن أكمله حتى الآن. وكنت تواقاً لمعرفة ما إذا كانت قد طرأت بعد التطورات على مواقفه من هذه المسألة الشائكة: أي مسألة سبب انحطاط المسلمين المزمن والطويل. فإذا بي أجد ضالتي بعد أن كنت خائفاً. كنت أعرف مواقفه السابقة وأشاطره بعضها وأختلف معه في بعضها الآخر، والشيء الذي كان يزعجني لديه هو تركيزه على نقد التنوير الأوروبي والعلمانية الفرنسية والحداثة بشكل عام. كان من كثرة تركيزه على ذلك، يكاد ينسى نقد الأصولية المتزمتة والمتحجرة التي تضرب بأطنابها في كل أنحاء العالم العربي

والإسلامي.

وأتذكر أني قلت قبيل انعقاد المؤتمر التدشيني «للمؤسسة العربية للتحديث الفكري» في بيروت، أرجو ألا تكثر من نقد العلمانية هناك، وأن تتذكر أنك في بيروت، أي في البلد الذي عانى أكثر من غيره من صراع المذاهب والأديان.

ثم أردفت بنوع من الغضب والانفعال (على الهاتف) قائلا: لقد حدثت عدة حروب أهلية هناك، وسالت الدماء أنهاراً بسبب الأصوليات المتحجرة والضيقة. وبالتالي فمشكلتهم ليست الانحرافات أو التطرفات التي طرأت على العلمانية الفرنسية، وإنما العكس تماما.

وبالتالي فحذار من نقد التنوير أو الحداثة بأي شكل. فلكل مقام مقال.. يمكنك أن تفعل ذلك في باريس أو لندن أو برلين، حيث لا يؤدي نقدك إلى الإطاحة بالعقلانية، ولكن ليس في بيروت... بعد أن تركني أفرغ شحنة غضبي كلها رد قائلا: صحيح، صحيح. ولكني عندما أنتقد انحرافات التنوير والحداثة، فإني أفكر في مصلحة الشعوب الأوروبية والإسلامية في آن معاً، وإن كنت أعترف بأن الحاجيات الفكرية مختلفة هنا أو هناك. ولم يقنعني رده كثيراً..

والآن ماذا حدث؟ هل غير موقفه في كتابه الأخير؟ هل عدل منه؟ يخيل إليَّ أن نعم. صحيح أنه كان يقول في السابق بضرورة تطبيق المنهج العلمي أو التاريخي على التراث العربي الإسلامي بكل صرامة ودقة موضوعية.

وصحيح أنه كان يمارس هذا التطبيق عملياً من خلال مشروع عمره الطويل العريض: نقد العقل الإسلامي. وصحيح أنه كان يعترف بدور التنوير والطبقة البورجوازية في تغيير أوضاع أوروبا والانتقال بها من المرحلة الاقطاعية الأصولية، المسيحية، إلى المرحلة الحديثة والتنويرية: أي مرحلة حقوق الإنسان والمواطن، المرحلة الديمقراطية.

ولكنه كان يمر مرور الكرام على ذكر التنوير ويتحاشى التوقف عنده طويلا. أو قل أنه بعد أن يتوقف عنده كان كثيراً ما يحذر من سلبياته من دون أن ينكر إيجابياته بالطبع.

أما الآن، وفي هذا الكتاب، فإنه يعترف صراحة بضرورة أن تمر الشعوب العربية والإسلامية بالمرحلة التنويرية، مثلما حدث للشعوب الأوروبية بدءاً من القرن الثامن عشر. اعترف بأن توصله إلى هذه النتيجة بكل وضوح وجلاء أثلج صدري وقلّص المسافة النفسية والفكرية التي كانت تفصل بينه وبيني. في السابق كنت متفقاً معه على المرحلة التفكيكية من العمل على الأقل: أي تفكيك الانغلاقات التراثية المتحجرة والمتحنطة. وكان بارعاً في ذلك كل البراعة ولا يكاد يضاهي.

كان يمارس عملية النقد – ولا يزال- بكل تمكن واقتدار. كنت أعرف أني أمشي معه حتى منتصف الطريق. وبعدئذ نفترق لكي أقطع ما تبقى من المسافة لوحدي. وكنت أقول بيني وبين نفسي: هذا يكفيني منه ولا ينبغي أن أكون طماعا أكثر مما يجب! يكفي أن تجد مفكراً كبيراً يمشي معك في نفس الاتجاه، بل ويشق لك الطريق ويقوم بالعمل الصعب والتعزيل الرهيب، ثم يتركك بعدئذ تكمل المسيرة لوحدك في طريق مفتوحة وممهدة...

ولكن يخيل إليَّ أنه بعد ضربة (١١) سبتمبر ثم بالأخص بعد ضربة (١١) مارس في مدريد راح يغير مواقفه النقدية، أو قل راح يجعلها راديكالية أكثر. لم يعد يراعي التيار التقليدي، ويجامله أكثر مما ينبغي، كما كان يفعل سابقاً. لقد أجبرته هذه التفجيرات التاريخية والمأساوية على استشعار حجم المرض العضال بعد أن استفحل في أحشاء المجتمعات العربية والإسلامية، ووصل إلى ذروته القصوى. ولذلك قال في هذا الكتاب الجديد ما يلي: لقد أجبرت المسيحية الأوربية، ودائماً بعد مقاومات عنيدة وتأخر زمني، على هضم مكتسبات الحداثة العلمية والفلسفية

والقبول بها. ولكن ليست هذه هي حالة الإسلام، ولا اليهودية، ولا المسيحية الشرقية الأرثوذكسية التي لم تشهد مجتمعاتها نفس الخضة العلمية والفلسفية التي شهدتها مجتمعات أوروبا الغربية بدءاً من القرن السادس عشر. ولهذا السبب فإن القوة الانغلاقية والدوغمائية للتراث اللاهوتي هي أقوى لدينا بكثير مما هو عليه الحال في المجتمعات الأوربية المحررة والمتقدمة. وهذا ما يفسر سبب الانتشار الواسع والضخم للحركات الأصولية المضادة للنزعة الإنسانية بشكل صارخ. وأكبر دليل على ذلك هو أن أنور الجندي يشن هجوماً صاعقاً على طه حسين زعيم النزعة الإنسانية الحديثة في الفكر والآداب العربية من دون أن يحرك أحد ساكنا للدفاع عنه. انظر كتابه: طه حسين في ميزان الإسلام. وكما أن أصحاب التقليد والاجترار قضوا على الفكر الفلسفي العقلاني في الماضي، أي فكر ابن رشد وابن سينا وابن خلدون، فإن التقليديين اليوم يريدون أن يقضوا على الفكر المستنير والمنهج العقلاني في العالم العربي.

وبالتالي فالمعركة قديمة جديدة. والأزمة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ العربي – الإسلامي. ومثلما أن ابن قتيبة كان يهاجم «العلوم الدخيلة» في وقته (أي الفلسفة اليونانية)، فإن أصوليي اليوم يهاجمون «الغزو الفكري» للغرب. على هذا المستوى من العمق ينبغي أن نوضح المشكلة لكي نفهمها على حقيقتها. وبالتالي فلا تكفي التحليلات السطحية السريعة لتقرير التنمية الإنسانية في العالم العربي بمواجهة الوضع المستفحل خطورة. فالمرض أكثر عمقاً وتجدراً مما يظنون..

أركون .. كما عرفته ؟!

كان المفكر الجزائرى محمد أركون – عندما سافرت إلى باريس أوائل ثمانينات القرن الماضي – ملء السمع والبصر. كما كان يشغل موقع أستاذ ورئيس قسم الدراسات الإسلامية في جامعة السوربون الجديدة.. والأهم من ذلك أن الطلبة العرب كانوا يخشونه ويبتعدون عنه، وإذا قدر أن التقينا بدراس عربي يُشرف البروفيسور أركون على دراساته كنا ننظر إليه بشفقة ونكاد نتمعض على حاله! ولم لا..ألم يعمل مع أركون آكل لحوم البشر! الغريب عنما قلت لأركون ذلك في شكل مواجهة صريحة لاحقا كان يضحك في مراره ويعلق قائلاً: إنهم قوم – يقصد الدراسين العرب – لا يودون العمل فقط هم يريدون الحصول على «التتر» وحرف الدال الذهبي دون أن يعملوا!!

***

ولقد تكسّر ثلج كثير في العلاقة التي كانت تربطني بأركون فلقد انتهيت من دراسة دبلوم الدراسات المتعمقة في الفلسفة مع أستاذ آخر هو «بيير تييه» في السوربون الأولى.فقويت شوكتي خصوصاً أن بعض الدارسين الممنوحين أو المبعوثين لم يتمكنوا من الحصول على هذا الدبلوم..وثانيا لأني أعمل كاتباً صحفياً في جريدة الأهرام وكان لأركون ولع بالصحافة بشكل عام، والصحافة المصرية بشكل خاص لأن الرجل كان يعرف أنه غير معروف بالقدر الكافي في أرض الكنانة وكان يثق تماما في أن الصحافة اليومية هي وسيلته خصوصا إذا وجد من بين معشر

الصحفيين من له صلة بالبحث العلمي – كحالي – وقد سبق أن قرأ بعض مؤلفاته الفلسفية! وأذكر أنه ذات يوم أرسل إلىّ نسخة من كتابه ،لشهير في سلسلة ماذا أعرف وكانت بعنوان: «الفكر العربي»، وفوجئت به قد كتب بخط يده الإهداء لي وقال فيه ما نصه: «إلى سعيد السعداء آملاً أن يساعده هذا لكتاب في تقديم هذه الأفكار وبرامج البحث مع المودة – محمد أركون.

وفى عام أسماه محمد أركون عام الفيل (١٩٩٣م) أهدانى كتابه «أين هو الفكر الإسلامى المعاصر»؟ فكتب «أحمد وأشكر المولى الذى أسعدنى بلقاء سعيد فحوّل الغربة إلى إمتاع ومؤانسة وساعد على نشر كلمة الحق بقلم زيتونة ليست من الغرب ولا من الشرق».

وذات مرة التقيته في إحدى الندوات التي كان مركز الدراسات العربي – الأوروبي ينظمها فحدثني عن أنه شاهد فيلماً للمخرج 'اللبناني برهان علوية، ووجد اسمي يتردد في أثنائه، ثم علّق على ذلك بقوله: إن اسم سعيد يطاردني أينما حللت وارتحلت، وعرفت أيضا أنه شاهد هذا الفيلم في أسبانيا وتحديدا في إحدى دور السينما في قرطبة حيث كان يحلو له المقام لبعض الوقت في العام.

وأذكر أن مجلة الأهرام العربي قد طلبت من مكتب الأهرام في باريس أن يجري حوارا مع محمد أركون بمناسبة اختيار القاهرة عاصمة للثقافة العربية فكان أن أرسل المكتب شخصاً آخر للقيام بالمهمة فرفض أركون ذلك.. وهاتف المسئول وقال له أنه يفضّل أن يجرى كاتب هذه السطور الحوار معه لأنه قرأ مؤلفاته ويعرف فكره جيداً، فضلاً عن أنه تلميذه وصديق له فقال له السيد المدير أن كاتب هذه السطور (د. سعيد اللاوندي) سوف يتزيد عليك ويقول كلاماً لم تقله لكننى سوف أقول له أن يحاورك بناء على طلبك وفى كل الأحوال أنا برئ من حواره معك(*).

(*) ذات مرة اتصل بى المخرج الفنان برهان علوية وحدد موعدا في إحدى شقق باريس وكان =

في إحدى المرات اتصل بي أركون وضرب لي موعدا في المكان المفضل إليه وهو أحد الفنادق بميدان الجمهورية.. وبعد أن هش في وجهي وبش.. قال لي..ألا تريد أن تشاركني في إصدار كتاب عني! راقتني الفكرة كثيرا، خصوصاً أنه كان قد رشحني للكتابة عنه عندما اعتزم الشاعر أدونيس إصدار عدد خاص عنه من مجلته «مواقف» ذات يوم.. قلت متحمساً..هذه واحدة من أمنياتي..هلا تساعدني: وشرعنا بالفعل في وضع مخطط عام لهذا الكتاب المزعوم، فقال: في الفصل

=العنوان سهلاً إذ نزلت في محطة «جلاسيير» وبعد دقائق وجدتني في المكان المحدد الذي كان مكتظاً بالممثلين والفنانين الذين جاءوا خصيصاً للعمل في هذا الفيلم وكان من بينهم الدكتور محمد كلش الذي كان يعمل مذيعاً للأخبار في ذلك الوقت في إذاعة الشرق التي كانت تبث إرسالها فى باريس.

والذي كان يسوس الأمر بتكليف من برهان علوية نفسه كان شخصاً يدعي «حسن»..وأذكر أنه دعاني ذات يوم أن التقي بالمخرج الفنان الذي ذكر لي إنه كان معجباً – يقصد المخرج اللبنانى برهان علوبة – إلى حد الهوس بالقصص التى أرويها فى برنامجى الإذاعى «كلام فى الهوا» الذى أقدمه يومياً من إذاعة الشرق. وقال إنه يريدني أن أتكلم في الفيلم بنفس الدرجة من العفوية وشرح لى «برهان» قصة الفيلم التي تدور حول اثنين من المصريين ذهبا إلى العراق في زمن صدام حسين «الأول» انخرط في الجيش العراقي و«الثاني» انضم إلى فريق التحالف المعادي لصدام وكانت النتيجة أن الاثنين كانا يقفان في صفين متناقضين يضرب أحدهما الآخر دون ذنب اقترفاه اللهم إلا البطالة في مصر التي دفعت كليهما إلى السفر والانضمام إلى صفوف الأعداء!!

ولقد عرفت هذه الواقعة عندما ذهبت إلى محمد أركون في المكان المفضل إليه وهو صالون استقبال فندق شهير في ميدان الجمهورية بجوار شارع المعبد Rue du temple عندما ابتدرني الرجل بسؤاله: ما هي علاقتك بالسيد مدير المكتب؟.. فأجبته بأنني أشغل منصب نائب المدير منذ فترة وأنت – هكذا قلت- تعرف المشاحنات العادية بين أي مدير ونائبه في مصر المحروسة فقال أركون أن كل ما أعرفه هو أن هذا الرجل ما كان له أن يتقوّل عليك زورا وعدوانا..وبعد كلام كثير قال أركون أن هذا المدير جاهل أو على الأقل نصف مُتعلم.. وكان أركون يقول لي في كل مرة يلتقيني فيها: كيف حال النصف متّعلم فأضحك وأرد عليه قائلاً إنه بخير.. هل تريد شيئاً منه، فيُشيح بوجهه عني ويقول: لا يا عم لا أريد شيئا.. فقط أريد أن أسأل عنه كما أوصانا الدين الإسلامي الحنيف.. فقد كان رسوله الكريم ﷺ يسأل عن سابع جار!!

الأول يمكن أن تكتبه بعنوان «أركون يواجه الاستعمار». وفيه تشرح لماذا اندفعت في دراسة موضوعات خاصة بالفكر الغربي والجواب هو لأجد أسلحة في الفكر العربي أكافح بها الباحثين الغربيين الذين يتهمون الفكر العربي (والإسلام) بأنه لم ينتج نزعة فكرية وثقافية قط. وعندما قرأت ذلك الهجوم.. ثم أتيح لي أن اهتم أكاديميا بالقرن الرابع الهجري قلت في نفسي:يجب أن أرد عليهم وهو ما حدث بالفعل من خلال كتاب أسميته «الأنسية العربية» في القرن الرابع الهجري(*)!

وفي الفصل الثاني: أركون والإسلاميات التطبيقية.. توضح لماذا اتجه أركون إلى دراسات تهتم بنقد العقل الإسلامي وليس نقد العقل العربي. والأسباب عندي - هكذا يقول أركون - أنني شاهدت في الجزائر بعد الاستقلال، نزعة للاستقلال الأيدولوجي فى الفكر الإسلامي وكذلك استقلال أيديولوجي للثقافة العربية «ومما يؤسف له أنني اكتشفت أن الجزائريين لا يعرفون ويهملون الاثنين معاً (الثقافة العربية، والفكر الإسلامي معاً)، وتبين لي أنهم (عرب ومسلمون) يتشدقون بكلام عن العروبة، والإسلام وهم جاهلون أشد الجهل بحركة التاريخ!!

وهنا قلت في نفس (إنني كجزائري يجب أن أساهم في تعريف الجزائريين: بماهية العقل العربي، وما هو العقل الإسلامي. لذلك وضعت كتاب: نقد العقل الإسلامي.

وقناعتي - والكلام مازال لمحمد أركون - هي أن هذا الكتاب «المزعوم» لابد أن يستفيد منه كل العرب وليس فقط الجزائريين!..ولإنجاز هذا العمل

(*) أذكر أني تجرأت ذات يوم ودعوته للعشاء في منزلي بضاحية شيل التي تبعد عن باريس ٢٠ كيلومترا وكان بين الحضور الناقد الكبير الراحل سامي خشبة ودارت بين الاثنين محاورة عن العنصرية التي كان يبدو أن الأخير كان مهتما بها في ذلك الوقت فضلاً عن أنها كانت حديث الساعة.

اكتشفت أنه لابد أولاً من الإحاطة بعلوم الإنسان والمجتمع لأنها تزود الباحث بوسائل التفكير.. ومناهج البحث العلمي (النقدي) فمثلا يجب تطبيق هذه العلوم لدراسة الفكر العربي والإسلامي على السواء.. ليس فقط من ناحية البحث التاريخي ولكن أيضا بإثارة أسئلة مُرتبطة بالوضع الأيديولوجي الراهن في المجتمع العربي والجزائري أو العربي بشكل عام)..

ثم يستطرد أركون – في هذه النقطة قائلاً:

إنني أخذت المجتمع الجزائري هنا مثالاً (لأني جزائري) كما اعتبرته منطلقاً فقط لأعمم البحث بعد ذلك على جميع ما يهم الفكر العربي المعاصر. ومشكلة (الممارسة) للحداثة الفكرية.. وما يُلاحظ أنني اكتشفت أن الفكر العربي المعاصر لم يفكر بعد فيما هو عليه الفكر الحديث في البيئات العلمية المعاصرة.

الفصل الثالث: أركون والبحوث القرآنية، وفيه يمكن الاعتماد على كتابي: قراءات في القرآن.

الفصل الرابع: أركون وتحديث الفعل الإسلامي وفيه يمكن الحديث عن كتاب جديد هو : كيف يتم تفعيل الإسلام اليوم؟

الفصل الخامس: أركون والتاريخية ..ونجيب فيه عن مكانة أركون وموقعه من «التاريخ» كعلم ومن «التاريخ» كحياة واقعية أو كماضٍ للمجتمعات. واستطرد أركون قائلاً: هناك مشكلات عديدة بواجهها كل باحث في التاريخ وهي كيفية التعبير عما يتعلق بحياة الجماعات احتراما لروح العصر ورفضاً لعمليات الإسقاط على العصور الماضية مثل إسقاط الديمقراطية في النص القرآني وإسقاط الاشتراكية في الفكر العربي في القرون الوسطى وهذا – على كل حال – ما أسميته عملية إسقاط. وأيضاً مشكلة الفصل بين المعرفة القصصية والمعرفة التاريخية (ويمكن أن تجد ذلك مكتوبا بوضوح في كتابي «تاريخية العقل الإسلامي!

الفصل الأخير (ويمكن أن يحتل مكانة في الصدارة) وهو بعنوان: مصادر ثقافة أركون.. وفيه يجب أن نتعرض لجملة من القضايا مثل العلمانية والثورة الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والنموذج الحضاري، وقضايا الفلسفة، وعلم الكلام في الغرب وعند المسلمين، وقضية البحر المتوسط (كمجال تاريخي وثقافي) وقضية الأديان المقارنة، وقضية انثربولوجيا الثقافة ونقد العقل المشرّع، ونقد العقل السياسي..

وفي الخاتمة يقول أركون يمكن أن تطرح عليّ جملة من التساؤلات مثل:

كيف نشرح تطور العلاقات بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الأوروبية، ورأيك في موقف الجاليات الإسلامية بالمجتمعات الأوروبية. وما هو مستقبل الإسلام في الغرب، وثقافة المسلمين وكيف يمكن تطوير هذه الثقافة في بيئة غربية.

وهل العلمانية حلاً سحرياً لابد منه لجميع المجتمعات المتشبثة بالمصادر والأحكام الدينية؟ وما هو دور المثقفين العرب والمسلمين في المجتمعات الغربية؟

وأخيراً ما هي علاقتك الخاصة بالمثقفين الغربيين؟

* * *

بعد لحظة صمت قصيرة بد لنا أن أحدنا – بسؤال أركون عن العنصرية- إنما نكأ جرحا غائرا فى صدره إذ تنهد الرجل تنهيدة كبيرة ثم ما لبث أن قال: العنصرية – يا صديقى هي ظاهرة موجودة في كل المجتمعات التي تنحدر عناصرها من أصول وثقافات ولغات مختلفة. والطبيعي جدا أن ينزعج أبناء البلد الأصليون عندما يجدون أن عناصر أخرى أخذت تزاحمهم وتنافسهم في المناصب والخدمات التي يوفرها مجتمعهم. أي أن شعورهم بالتهديد في هذه الحالة ليس مُستغربا.

وعندي أن العنصرية –تاريخيا- ترجع إلى التصورات التي ترسخ في مخيلة الناس فيما يخص الاختلافات الدينية، فالحروب الأهلية التي عرفتها فرنسا مثلاً

كانت عنيفة لأسباب دينية مع أن الفرنسيين في القرن السادس عشر كانوا من أصل واحد! وهو ذات الشيء الذي يحدث بين أناس آخرين يتقاتلون لأسباب دينية أو سياسية على الرغم من أنهم ينحدرون من أصل واحد. يسكن أركون لحظات ابتلع فيها شيئا من طعام ثم قال موجها حديثه إلى الناقد سامي خشبة: معنى هذا أن العنصرية ليست إلا مجموعة من التصورات التي لا تتعلق بالعنصر فقط ولكن تتعلق أيضا بالأخلاق والعادات التي تختص بها كل جماعة في مجتمعات ما.. والاصطدام بين العناصر يرجع سببه أيضا – في رأيي- إلى المنافسة التي توجد في جميع المجتمعات من أجل السلطة.. كل هذا قد يُقدم في لغة خاصة تستعمل مفهوم العنصرية مع أن التوترات ترجع إلى أسباب غير عنصرية.

أما بالنسبة لوجود العرب والمسلمين في البلدان الأوربية الذي بدأ يزداد ويتسع في الفترة الأخيرة فيجب أن نرجع – ونحن بصدد تفسيره- إلى الأصول التاريخية القديمة في المنافسة بين الأديان المنزلة إذ نعرف أن الإسلام منذ ظهوره في المدينة كان له أن يواجه رفض اليهود والنصارى، إذ كان الإسلام ينافس هذين الدينين.. باستقلال رموز دينية مشتركة كالوحي والنبوة والميثاق أي العلاقات بين الإله الذي يخاطب البشر عن طريق الأنبياء وبين الشعوب التي اختارها ليبلغ كلام لكافة الناس.

سكت أركون لحظة ثم قال:

هذه المنافسة في استغلال الرموز الدينية الرئيسية لم تزل تزداد بين أهل الكتاب طوال القرون ولم تزل تتفاقم لأسباب سياسية واقتصادية إذ كانت الشعوب التي تعيش حول البحر المتوسط لا تزال تتنافس لاحتكار السيادة وموارد الأرزاق في هذه المنطقة.. ولذلك نجد أسبابا كثيرة، وقديمة تدفع كل أمة إلى أن تتظاهر بالقوة والسلطة والتغلب على الأمم الأخرى، فالمسلمون مثلاً يعتمدون على القول «إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين» والمسيحيون كذلك يعتمدون على القول «إن خارج الكنيسة لا نجاة للناس» وبهذه الأفكار الثيولوجية التي كانت تُلقن في المجتمعات

الدينية من جانب العلماء وفي جميع المدارس وفي الخطب الدينية قويت التصورات التي نعبر عنها اليوم بالمواقف العنصرية.

وهذا النوع من الرفض المتبادل بين أمم أهل الكتاب لم يزل يسود إلى يومنا هذا قيما يُلقن لأبنائنا في المدارس الرسمية باسم التعليم الديني..وهذا يوجد عند المسلمين وعند المسيحيين وعند اليهود على حد سواء.

معنى هذا أننا لم نجد بعد الطريقة العالمية السليمة لنقدم لأبنائنا التقاليد الدينية في محتواها الإيجابي الذي يدعو إلى التسامح والأخوة بين الناس أيا كان دينهم أو مذهبهم الفلسفي والسياسي.

هذا النوع من التربية المعتمدة على روح التسامح والتفاهم والتعلمُ والبحث النقدي لم نهتد إليه بعد. فالخطاب الديني التقليدي الذي يستعمله جميع أهل الكتاب مبنيٌ على أُطر فكرية غير علمية.

عاد أركون إلى طعامه الذي كان قد ترك معلقته محملقاً فيه وقال لكن يجب أن نعترف بأننا نحاول في السنوات الثلاثين الأخيرة –أي بعد انتقالنا في البحث العلمي من العرض التاريخي للأديان إلى التحليل الأنثروبولوجي – أن نخرج من هذه العقلية المبنية على «الترافض» بين الأجناس والأمم وعلى المسابقة للاحتكار بما نسميه «الدين الحق» أو «الحقيقة» التي تختص بها أمة دون الأمم الأخرى.

ويجب أن نُلح على أن التحليل الأنثربولوجي للأديان غير مُنتشر حتى في البلدان المتقدمة والجامعات الغربية ناهيك عن جامعاتنا الإسلامية التي أنشئت في السنوات الخيرة، والتي لا تزال تتخوف من هذا العالم الأنثروبولوجي بالذات لأنه يؤدي إلى تغيير جذري في تصوراتنا فيما يخص القيم الدينية والأخلاقية والسياسية. ولهذا نجد هذه العنصرية تزداد قوة وهجوماً على الأجانب وخاصة العرب الذين يهاجرون إلى البلاد الأوربية..

ومما يزيد الطين بلة أن الأسلوب الديمقراطي في أوروبا مبني على الاستقلال الديماجوجي لكل ما يرهب المخيال الاجتماعي ونجد في هذا سر نجاح الحزب اليميني بفرنسا الذي يستغل الخطاب السلبي المعروف حول العرب ليرهب الناس بفرنسا.. وليزيد قوة لآرائهم المسبقة، الراجعة إلى ما ذكرناه فيما يخص المنافسات الدينية وتصوراتها الدوجماطية.

«لوبن»بفرنسا يخلط دائما بين «البراهين» الدينية والتعليلات الاقتصادية، والملاحظات السياسية ليقدم صورة مُرهبة للفرنسيين فيما يخص وجود الجماعة العربية والمسلمة في فرنسا.

ثم استطرد أركون قائلاً:

ولكن يجب علينا ونحن بصدد تحليل العنصرية تحليلاً علميا شاملاً أن نضيف إلى هذا أن المجتمع الفرنسي قد اتسع لأجناس عديدة منذ سنوات ونجد في أكثر المدارس الابتدائية أبناء وبنات ينحدرون من أصول وأجناس متعددة، حتى أن إحدى المدارس يندر معظم أبنائها من حوالي ٦٠ جنساً!

وهو ما يدل على أن المجتمع الفرنسي قد تطور تطورا حديثاً علمانيا لأنه لا طريق البتة لتواجد العناصر المختلفة في بلد واحد دون علمانية الدولة. لأن الدولة تحكم كما كان يحكم «الحَكَمْ» في القبيلة العربية أي بأنصاف بين جميع المواطنين أيا كان دينهم وجنسهم.

ولذلك يجب أن ننصف هذا المجتمع وألا نشيع عنه أنه عنصري ورافض للمهاجرين كما يجب علينا أن ننصف أنفسنا كمسلمين بأن نعترف بأننا لم نبلغ بعد هذه الدرجة من التسامح والتفتح حتى نتلقي في مجتمعاتنا العربية أجناساً مختلفة ونسمح لها أن تعيش في بلادنا وتتمتع بنفس الحريات والحقوق التي يتمتع بها مواطنوها وكثير من الأوروبيين يؤاخذوننا على هذا ويقولون أنكم لا تسمحون لنا

بأن نستعد في بلدانكم كما نسمح نحن لكثير من الأجناس أن ستقر في بلادنا..

والحجة على ذلك قائمة.. فمثلاً فيما يخص زيارة المساجد في البلاد الإسلامية نجد كثير من الأوربيين يشكون من أنهم لا يُسمح لهم أن يزوروا المساجد أو أن يدخلوا بعض المناطق الخاصة بالمسلمين مع أنهم يحترمونها..

صمت الجميع ممن كانوا يتحلقون حول المائدة لحظة وأخذوا يستمعون إلى أركون إذا أنجزنا هذا التطور وبلغنا هذا المستوى من الإنصاف للآخرين فسنتمكن أن نطالب باحترام حقوقنا عند هؤلاء الآخرين.

ولاشك أننا سننجح أكثر في هذه المطالبة وبهذا نهيئ الجو الجديد الذي نحتاج إليه حتى نخلق مجتمعا جديدا تسود فيه روح التسامح والتعارف والتفاهم والتضامن في حل المشاكل العويصة والمتعددة والتي لا تزال تطرأ علينا، وتتراكم لدينا.. ويصعب حلها إذا ظللنا نعيش في هذا الجو من العدوان والمناضلة والترافض كما وضعنا.

وفيما يخصني أرى أن هذا المجتمع الجديد في متناول جهودنا واجتهادنا لإنقاذ الوعي الجماعي من القصائد الزائفة والأحكام المسبقة فيما يتعلق بالثقافات الأجنبية وخاصة العلاقات بين الثقافة العربية والثقافات الأوربية.

عند هذا الحد توقف أركون عن الكلام وبدا لي أن هما قد انزاح عن كاهله، أو أنه كان مكلفا أن ينقل لنا هذه الرسالة، ثم أخذنا نتحدث عن أشياء تتعلق بصديقنا النصف متعلم.. وأمور أخرى..

كان الناقد الراحل سامي خشبة يستمع إلى أركون، فترك شوكته وسكينته وظل يرقبه وهو يتحدث عن العنصرية وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح..ثم عاد لطعامه لا يلوي على شئ!!

* * *

وفي مصر فكر أمين عام جامعة الدول العربية(*) (**) في الاستعانة بعدد ١٠٠ من المفكرين العرب –كان من بينهم محمد أركون– لرسم خريطة لمستقبل الدول العربية. واذكر أن أحد الصحفيين المصريين قد التقى برجلين الأول هو أركون والثاني هو المفكر العربي السوري برهان غليون واشترط عليه الرجلان ألا يجرى معهما حوار إلا بعد أن يبحث عني ويسلمني إليهما!

وفوجئت ذات مساء بهذا الصحفي يتصل بي في المنزل ويخبرني بوجود أركون، فذهبنا إليه واصطحبته إلى حي الحسين الذي قال أنه يود أن يذهب إلى هناك وبعد أن هبطنا من السيارة وكان الليل قد أرخى سدوله، فاقتربت منه أو أن أمسك بيده استعداداً لعبور الشارع، وفوجئت به يرفض انتظاراً لأن يكف سير العربات، امتثالاً لإشارة المرور التي كان يقف بالقرب منها.. كنا على مقربة من مسجد الحسين إلا أنني نبهته وأنا القاهري الصميم بأن سيل العربات لن ينتهي وأن إشارات المرور حمراء أو خضراء.. لا معنى لها هنا.. إلا أنه أصرّ على رفضه وعندما طال انتظاره، طلب بإلحاح كطفل أن يعود إلى الفندق الذي ينزل فيه.. وعبثاً حاولت إثناءه عن رفضه إلا أنه أصرّ على العودة دون أن نرى شيئا في حي الحسين!!

.. وقد علم صديقي الدكتور فوزي فهمي (المثقف المصري المعروف) بأن القناة الفضائية المصرية وكانت في ذلك الوقت تحت إشراف زوجته السيدة ميرفت سلامة فطلب إليها أن يكون اللقاء مع السيد محمد أركون بلا حدود، وكان لقاءا ثريا تحدث

(*) كان الناقد الراحل سامي خشبة يحرص على زيارتي في المنزل في باريس وفي هذه المرة دعوت أركون على شرفه وتناولنا وجبة دسمة من الطعام والفكر معاً.. ويبدو ذلك من محاضرته السابقة لنا عن العنصرية.

(**) السيد عمرو موسى كان أمينا عاما للجامعة العربية في الفترة من عام ٢٠٠٠ إلى عام ٢٠١١ وهو الذي أعلن عزوفه عن المنصب استعدادا لخوض معركة الرئاسة في مصر بعد أن أطاحت ثورة ٢٥ يناير بنظام حسني مبارك.

فيه البروفيسور أركون عن حياته، وفكره، والمسلمين في الغرب، ولولا تعليق الكثيرين مع أركون وتدخلاتهم، لظل الرجل نكرة خصوصاً أن من استضافته في برنامجها كانت فتاة لا تعرف من أركون سوى الاسم الذي سمعته حديثاً

* * *

وعندما سافرت إلى باريس في صيف عام ٢٠٠٦ -بدعوة من جانعة السوربون- كان بيت أركون هو مقصدي.. وقابلتني زوجته (الثانية) وهي من أصل مغربي، وحدثته في أمر الترجمات التي أعددتها عن الإمام محمد عبده وسلامة موسى، وعبد الرازق السنهوري، فرحب بها شرط أن يكون هناك جديدا، وأذكر أني تحدثت مع إحدى دور النشر فرجعت بتقديم أركون للترجمات، وكنت حدثته عن عشقي لكتاب بعنوان ثلاثة لبنانيين في القاهرة وضعه إذا لم تخني الذاكرة - الدكتور رفعت السعيد المتحمس لنظرية النشور والارتقاء ويتحدث عن شبلي شميل، ويعقوب صنوع أول حامل للقب الثور فى الفلسفات الشرق عامة وجورجي زيدان صاحب مؤسسة دار الهلال وقلت إنني سوف أسمي كتابي ثلاثة مثقفين مصريين في باريس.. وأذكر أن الرجل كان صادقاً في وعده.. وأعطاني كتابه عن الأنسبة فى الإسلام، كما قدم لي المقالات التي تناولت لكتاب ثم عرفت منه بإهداء خاص كتبه بالخط الكوفى الذى يتقنه، كتب يقول: «أديب الفلاسفة والمفكر الثائر الذي نازع الحق بالحق للحق الصديق هو (شخص) آخر هو أنت من العبد الحقير إلى مفتي الديار المصرية، ولي الله في المغرب سعيد السعداء وحيد عصره في الإفتاء والإرشاد. الكتاب ليس سوى أطروحته للدكتوراه.. ثم أخذ يحدثني أركون عن نفسه وعن أصله الربري وعن الحجرة التي كانت تقسمها مع أسرته جاموسة كانت كل ما تملك أسرته من حطام الحياة.. ثم عن السوربون التي كان يحلم بها، وأساتذتها الميامين. الذين تتلمذ على أيديهم حتى أصبح رئيسا لقسم التاريخ الإسلامي، ثم تفرغ لاحقا للمحاضرات في بعض الجامعات الإسلامية الكبرى وظل على هذه الحال حتى مات يرحمه الله رحمة واسعة»